في شخصه من الجوانب والأبعاد، ما يجاوز الشكليات والمجاملات، ليغورَ في المعاني والدلالات، ويقدم لأصحاب المناصب والمقامات، نماذج وأمثولات يستفيد منها الرئيس والمرؤوس، وتعود بالخير على المواطن، رب العمل الحقيقي الذي كُلنا نعمل في ورشته.

ومهما تعددت الدلالات في دنياه، وتنوعت المعاني في شخصه، فإنها مظاهرٌ حقيقية عنه، وحروفٌ من إسمه وقسمات من وجهه.

كان لجوزف أبي مارون من الحضور أمام الوظيفة وشؤونها، أمام مشكلاتها وهمومها، أمام التبعات والمسؤوليات، أنه بروح النص كان يواجهها، لا بحرفه... بصدره كان يتصدى لها لا بدرعه... أمام القانون كان يقف لا خلفه...

من هذا الحضور، كان تعاملُه المميز مع رجال السياسة والرؤساء، وكان موقفه المنفرد بين المواقف المعروفة لكثير من الموظفين:

موقفُهم انصياعٌ يمازجه خضوعٌ، لا يخلو من إنحناء...

موقفه وقوف، نسيجه صلابة تفضي إلى صدام لا وهن فيه ولا قُصور... حسبُنا هنا أن نتذكر صدامه شبه الدائم، مع كل من يحاول تبديد الأموال العامة بخاصةٍ عبرَ مناقشةِ الموازنةِ العامة، وعبرَ مراحلِ ذلك إعداداً وتهيئةً، مناقشةً وإقراراً، تنفيذاً وإنفاقاً...

مواجهةٌ لكبار الرؤساء، وتوجه إلى المرؤوسين، تصلبُ مع الرؤساء، وحنوُ على المرؤوسين، شدةُ بغير قسوة ولينٌ بغير ضعف، توازنٌ واتزان لا إفراط ولا تفريط كلُّ شيءٍ إلى مقدار.

خلال ثلث قرن شغل وظيفة رئاسة مصلحة الموازنة، كان مع القولِ المشهور: أكون أو لا أكون تلك هي المسألة، كان يجري في مدارها، كانت الوظيفة ومسؤولياتها هي القضية، أكون أو لا أكون، تلك هي الوظيفة. أبداً لم يكن جوزف هامشياً، إنها شخصيته المميزة بالمواقف الرافضة، إنها مصيبته أيضاً، التي جعلته يشغل وظيفة رئيس مصلحة لمدة ثلاثين عاماً دون أي ترفيع.

كنت أريد أن أبد مع الشاعر:

وأحارُ من أي الجوانبِ أرتقي لأطالَ بعضَ شوامخِ البنيانِ

ورأيت به أن أنهي، فالحديثُ عن الرجل الأخ الصديق الخلوق الصامد سيكون له يومٌ آخر ومكانٌ آخر إن شاء الله، وإنني أؤكد بأنني سأسعى معكم لإيجاد هذا اليوم، وإيجاد هذا المكان.

حسبيَ هنا أن أقولَ له إنها بدايةٌ وليست نهاية، ذلك أنه لا يزالُ قادراً على العطاء الكبير بما يحملُ من معرفةٍ وعلمٍ وخبرة، وإذا كان ذوو الشأن لم ينهضوا إلى تكريمه فشأنُه في ذلك شأنُ كل ذوي الجباهِ الشم والقامات المنتصبة، حسبي هنا أن أردّد قول الشاعر:

فما شوّه الحسناءَ عطلٌ إلى الغنى ولا حسّن الشوهاءُ عقدٌ من الماس

الأوسمة لا يحتاجها صدرُه كي يزدان بها. هي تزدانُ غوىً وتنضرُ طهارةً إذا علّقت عليه والتصقت به.

كف جوزف أبي مارون النظيفة، بقيت كذلك، بالرغم من حفرِ المغرياتِ في وزارة المالية. كان يؤمنُ صديقنا الكبير بقول دركهايم:

«إن الإنسان هو بالنتيجة السمعةُ الطيبةُ والصيتُ الحسن، فأحسن به رائداً ونموذجاً ومثالاً للموظف الكفؤ، النشيط، الشريف، وبوركَ للبنان من أمثاله القلّة وطاب يومكم وأسعدنا لقاءكم.